عبد الله بن يونس المجبري
شاعر القطرين

د. قريرة زرقون نصر
كلية الآداب – جامعة الفاتح

مقدمة:

يبدو أن لكل أمة من الأمم فترات من الجمود والتقهقر، كما لها فترات من الصعود والقوة، وعلى كافة المستويات وفي شتى مناحي الحياة، وهذا ما رصدناه في حضارة معظم الشعوب، ونحن إذ نؤكد هذا لا نسعى في الإطالة والمداورة حول ما نريد الوصول إليه، لكننا نحاول أن نضع لهذا الموضوع توطئة تليق به، أو مقدمة لا مناص من إثباتها، ولعل الأمة التشادية تمر في هذه الأيام بإحدى هذه الفترات المضيئة التي من أبرز سماتها سعيها الحثيث لاسترداد هويتها الأصيلة، وإحياء تراثها الإسلامي ولسانها العربي، وهذان العنصران حاول

الاستعمار بكل الوسائل القضاء عليهما، وطمس معالمهما، وإحلال ثقافته ولغته محلهما.

وما كاد يطمئن المستعمر على نجاح مساعيه حتى ارتجت الأرض من تحت أقدامه وبرز عملاق قوي، ذو روح مؤمنة، وعزيمة صلبة، وسرعان ما عرفة العالم أجمع، وتذكر التاريخ ما له من مآثر، فسجله في سفر الخلود باسم (الأدب التشادي).

ومن هنا رأيت أن ألقي الضوء على علم من أعلام الأدب التشادي، ورائد من رواده الذين تركوا بصمات خالدة، وسجلوا صفحات مضيئة في مسيرة هذا الأدب وتطويره.

ولا أدعي بهذه الوريقات القليلة أنني سآتي على أعمال هذا الشاعر، وتحليل كل نصوصه، ولكنني سوف أضعه أمام القارئ ما أمكنني ذلك.

أولاً: أسرة الشاعر.. أصولها.. مكانها:

ينتمي الشاعر إلى أسرة عربية عريقة، تتبوأ مكانة قيادية مرموقة في وسط قبيلة المجابرة، إحدى القبائل الليبية، والتي هاجر جزء كبير من أفرادها إلى تشاد، واستقروا فيها، قبل وصول الاستعمار الأوروبي الذي قسم هذه الدول أو الممالك الإسلامية، وأقام بينها الحدود والحواجز المصطنعة.

فمن المعلوم أن كل القبائل العربية هاجرت إلى تشاد من الجزيرة العربية، عبر طرق مختلفة، بعضها عن طريق مصر

فالسودان، وبعضها عن طريق المغرب، وبعضها عن طريق ليبيا. وقد استقرت هذه القبائل في هذه البلاد منذ قرون عديدة يرجعها البعض إلى ما قبل دخول الإسلام، بل إلى (الألف الرابع قبل الميلاد، على أقل تقدير)[1] ، ويعود أغلبها إلى بدايات دخول الإسلام في القرن الأول الهجري. وبالتالي فقد أصبحت هذه القبائل جزءا لا يتجزأ من التركيبة الاجتماعية لأهل هذه البلاد.

وقد كان أخر هذه القبائل المهاجرة إلى تشاد تلك المجموعة التي عرفت بالقبائل الليبية. نظراً لكونها هاجرت من ليبيا بعد أن تجدرت فيها، وأصبحت تشكل المكون الأساسي لسكانها، فكان من الطبيعي أن يكون لها ارتباط وثيق بتلك البلاد وسكانها، فالمجموعة المهاجرة لم تكن سوى فروع متعددة من قبائل كبيرة ظلت مقيمة في مواطنها الأصلية في ليبيا. وبالتالي فقد احتفظ كل فرع باسم القبيلة التي ينتمي إليها، وإن عرفوا جميعاً بين بقية قبائل المجتمع التشادي باسم (الفزان) نسبة إلى منطقة فزان في ليبيا.

ولم تكن هجرات هذه القبائل في وقت واحد، بل كانت على فترات متعاقبة، مختلفة الأسباب، ومختلفة الأحجام أيضاً، حيث كان

[1] . مساهمة القوافل التجارية في نشر اللغة العربية والحضارة الإسلامية في منطقة الساحل الإفريقي، عبد الرحمن عمر الماحي، أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء: كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس- ليبيا 1990م.

أولى الهجرات المعروفة في عام 1817م، أما آخرها فكان عام 1930م.[1]

ولم تكن هذه القبائل تعيش بمعزل عن الحياة الاجتماعية لسكان البلاد، أو تعتبر نفسها غريبة عن هذا المجتمع، بل الواقع يؤكد أن هؤلاء الليبيين (أخذوا يختلطون بالشعب التشادي في كافة المجالات)[2].

والواقع أن الهجرات بين المنطقتين كانت متبادلة فلم تكن هجرة من ليبيا إلى تشاد فحسب، بل كانت هناك هجرات معاكسة من تشاد إلى ليبيا فقد (توافد العديد من العناصر الكانمية والزغاوة والقرعان على إقليم فزان، حيث استقروا حول واحات القطرون وتراغن ومناطق أخرى من فزان، واختلطوا بعناصر السكان هناك، واندمجوا في المجتمع الفزاني، وما زالوا محتفظين حتى اليوم بملامحهم الكانمية، وأبرز ما فيها اللون الأسمر).[3]

إن هذه الهجرات قد أسفرت عن وجود تمازج عرقي واجتماعي عميق بين سكان هاتين المنطقتين (تشاد وليبيا) منذ أقدم التواريخ، وهذا ما يشهد به الواقع المعاش للقبائل الليبية التي استقرت في تشاد.

ومن هذه القبائل قبيلة (المجابرة) التي كانت أكبر هذه القبائل بروزا وتأثيراً في أوساط المجتمع التشادي، وخاصة في مدينة أبشة.

---

[1] .صحراء العرب الكبرى، محمد سعيد القشاط، مؤسسة ذي قار 1999م ص212.

[2] .تشاد من الاستعمار حتى الاستقلال، عبد الرحمن عمر الماحي، الهيئة العامة للكتاب 1982م، ص81.

[3] .دور الليبيين في مقاومة الاحتلال الفرنسي في تشاد، محمد الأمين حسين رماذ، بحث مقدم لنيل دبلوم الدراسات المعمقة في التاريخ والحضارة، جامعة الملك فيصل، العام الجامعي 1999-2000م، ص17.

وكان من أبرز الشخصيات، شخصية الشيخ يونس المجبري – والد الشاعر – شيخ قبيلة المجابرة، الذي كان يقيم في أبشة فترة من الزمن، ثم ارتحل مرة أخرى إلى مدينة (جالو) بليبيا، دون أن يقطع صلاته بأبشة.

أسمه ومولده:

هو الشيخ الشاعر عبد الله بن يونس بن عبد الله المجبري، نسبة إلى قبيلة المجابرة.

ولد في مدينة أبشة سنة 1911م، من أب ليبي الأصل، وأمه تشادية أبا عن جد من مدينة أبشة.

نشأته وتعليمه:

لم ينشأ الشاعر في أبشه نشأة كاملة، فقد سافر به أبوه مع والدته إلى منطقة جالو بليبيا عن طريق البر مع قوافل الإبل التجارية التي كان يتاجر فيها. وبعد وصوله إلى جالو التحق بالدراسة القرآنية حيث قضى فيها عدة سنوات، ثم عاد إلى مسقط رأسه أبشة، حيث عمل في المجال التجاري، وبخاصة في مجال السفر بالقوافل التجارية إلى ليبيا، عن طريق مرزق، وطريق القطرون، وكذلك طريق فايا– الكفرة.

ولعله كان في هذه الفترة يواصل التعليم في الحلقات العلمية المنتشرة في مدينة أبشة حتى تحصل على قسط وافر من التعليم، مكنه من الالتحاق بالأزهر الشريف في مصر، التي سافر إليها برفقة والده،

إلى أن نال الشهادة الجامعية سنة 1941م، عاد بعدها إلى أبشة مدرساً في معهد سيوقو الذي أُسس سنة 1944م، لكنه سافر سنة 1949م إلى بانغي بجمهورية أفريقيا الوسطى واستمر فيها يمارس النشاط التجاري حتى سنة 1955م، ثم عاد مرة أخرى إلى أبشة.

آثاره:

ترك شاعرنا ثروة علمية قيمة، رغم اشتغاله بشؤون التجارة، ورغم مشاركته الفاعلة في الأنشطة الثقافية والعلمية التي كانت تقام في أبشة، وفي معهد (أم سيوقو) تحديداً، كل ذلك لم يمنعه من المشاركة في مجال التأليف، فقد ألف ثلاثة كتب علمية، إضافة إلى ديوانه الذي ضم مجموعة قصائده الشعرية.

وهذه الكتب هي:

1. المليح في علم الفرائض الصحيح، ألفه سنة 1964م.
2. الجوهرة اللماعة في الأخذ بالصوم عن الإذاعة، ألفه سنة 1968م.
3. ولدة الإرشاد على فصول أشهر الميلاد، ألفه سنة 1970م.
4. ديوان شعر مخطوط.

وهذه الآثار والمخطوطات كلها ما تزال مخطوطة، عند عائلة الشاعر الموجودة في مدينة انجمينا، وهي لم تجد طريقها إلى النشر أيضاً، ولعل كثيراً من الباحثين والدارسين للأدب التشادي والتراث التشادي الآن، لم يسمعوا بها.

وفاته:

انتقل الشاعر إلى جوار ربه في أواخر رمضان من سنة 1978م بمدينة أبشة وقد رثاه مجموعة من الشعراء، منهم الشاعر عباس محمد عبد الواحد في قصيدته التي مطلعها:

قلبي تخالجه الأحزان والكدر ولوعة بات منها الدمع ينهمر

كما رثاه الشاعر أحمد عباس الموريتاني، الذي زار أبشة وأقام فيها فترة من الزمن، وذلك في قصيدته التي يقول فيها:

ألا ليت ريح الغرب عني تحمل إليك سلامي يا أبشي واسأل

عن الحال كيف الحال بعد مصائب عليك توالت كل يوم تجلجل

إلى أن يقول:

وعبد الإله المجبري ابن يونس سقى قبره من الغيث يهطل

فقيد جدير أن تظل له النسا بأم سويقو حاسرات تولول

ويذهل أهل الجعتنية[1] موته غادة تولي والمصائب تذهل

كأني بمن قد كان يعرف فضله من أرملة تبكي وشيخ يحوقل

بشوش سخي كفه متواضع ويرعى حقوق الجار من حيث تهمل

وما كان بدعا أو دخيلاً فإنه نسيب عريق في العلا متأصل

عزاء وصبرا يا مجابر كلما فقدتم أصيلاً ما عن الموت معدل

[1] الجعتنية: اسم لأحد الأحياء العريقة بمدينة أبشة

ثانيا: المجبري شاعر القطرين:

من الآراء السائدة والتي أصبحت شبه مسلمة بين أوساط الدارسين للأدب التشادي، ذلك الرأي الذي أطلقه الدكتور عبد الله حمدنا الله حول تشبيه الشاعر عبد الحق السنوسي بالشاعر محمود سامي البارودي[1].

وإذا كان عبد الحق السنوسي يعتبر (بارودي الأدب التشادي)، فإن من حق الشاعر عبد الله يونس المجبري أن نطلق عليه لقب (مطران الأدب التشادي)، وبالتالي فإنه يستحق عن جدارة لقب(شاعر القطرين)، الذي كان يلقب به خليل مطران.

الحقيقة أن هناك أوجه شبه عديدة بين الشاعرين يمكن أن يلاحظها الدارس لحياتهما وشعرهما وموقعهما من مسيرة التجديد في الأدب الذي يمثلانه. ونشير إليها باختصار في النقاط التالية:

1. الانتماء المزدوج إلى بلدين شقيقين، إلا أن هناك فارقاً جوهرياً في هذا الازدواج بين الشاعرين. فخليل مطران لبناني الأصل والمولد والنشأة، مصري الإقامة والوفاة[2]، بينما المجبري ليبي الأصل، تشادي الأم والمولد والنشأة والوفاة.

[1] راجع محاضرات الدكتور: عبد الله حمدنا الله في الأدب التشادي، التي ألقاها على طلاب السنة الرابعة بجامعة الملك فيصل. وكذلك : الاتجاهات الشعرية في شعر الشاعر أحمد عبد الرحمن إسماعيل، حسب الله مهدي فضله، بحث مقدم لنيل درجة الإجازة العالية (الليسانس)، من جامعة الملك فيصل، ص15.

[2] الأدب العربي المعاصر في مصر، شوقي ضيف، دار المعارف، ط9، ص121 وما بعدها.

2. الجمع بين العمل التجاري والنشاط الثقافي والأدبي. فمطران اشتغل أيضاً في المجال التجاري في بداية عهده بمصر، ولكنه أخفق فيه، وعين في الجمعية الزراعية الخديوية، فكتب فيها مجموعة من الأبحاث الاقتصادية، ثم تفرغ للأدب والثقافة[1].
3. وبالإضافة إلى وجوه شبه أخرى، يبقي القاسم المشترك والأهم بالنسبة لنا، هو دور كل منهما في التجديد الأدبي، أو بالأحرى، موقفهما من قضية التقليد والتجديد. فهذه الناحية أهم الجوانب، ولذلك سنتناولها في نقطة لوحدها.

أما في هذه النقطة فيهمنا أن نذكر أن الشاعر المجبري ظل وفياً لوطنيه الاثنين اللذين وجد نفسه منتمياً إليهما، دون تفريط ولا إفراط، وكان لكل منهما نصيبه الوافر من عواطفه ومشاعره واهتماماته، وبتالي نصيبه من القصائد الشعرية. وأعتقد أنه من الإجحاف بحق الشاعر أن يتخذ هذا الجانب وسيلة للتشكيك في ولائه أو جنسيته، أو إبعاده عن دائرة الأدباء التشاديين.

فالجنسية التشادية من حق كل مولود في تشاد، حتى لو لم يكن أبواه تشاديين، إذا رغب فيها بعد بلوغه السن القانونية للرشد.

وأشعار الشاعر التي بين أيدينا خير دليل على وفاء الشاعر لوطنيه، وتلاحمه مع قضاياهما، بكل صدق وحماس.

---

[1]. المرجع السابق، ص122.

أشعاره عن وطنه (تشاد):

نقصد بتلك الأشعار، أشعاره ذات الطابع الوطني، وهي التي تؤكد انتمائه لهذا الوطن، وانشغاله بمفهومه، وتفاعله مع قضاياه المختلفة.

ولعل أشهر قصيدة للشاعر هي قصيدته التي ألقاها في احتفال المعهد العلمي بأم سيوقو سنة 1964م، والتي جاء مطلعها:

وقفت بالمعهد العلمي زائره فأسمع هديت لما قد جئت أذكره

وفيها يعدد بعض المعلمين والإداريين الذين عملوا في هذا المعهد، ابتداء من الشيخ عليش عووضة مؤسس المعهد مشيراً إلى المؤامرة التي حاكها ضده المستعمرين، والتي انتهت بنفيه عن البلاد، إلى أن يختمها بالدعاء بالأمن والسلام لبلدته (أبشة)، يقول:

أرجوك يا رب تحقيقا لدعوتنا وما يليق من الأمرين أيسره
وعم بالأمن والخيرات بلدتنا وأكتب سلامتنا مما نحاذره

ولم يترك المجبري مناسبة إلا ويؤكد فيها أنه جزء من تركيبة هذا المجتمع، ولا يمكنه أن يفرط قيد أنملة في هذا الانتماء. ولذلك فعندما أقام مدير معهد أم سيوقو حفلاً تكريمياً في أحد الأعوام الدراسية، ونسى أن يقدم دعوة للمجبري لحضور هذا الاحتفال، سارع الشاعر إلى كتابة مقطوعة شعرية يعاتب فيها المدير، ويعلن له استياءه

من هذا التجاهل، كما يختمها بقبول اعتذاره الذي أبداه له، وأنه كان عن غير قصد، فيقول:-

لماذا يا مدير صددت عنا وقد خيبت منا فيك ظنا
أقمت بمعهد العلم احتفالا أضفت به إلى التعليم فنا
تقرب بالمودة من تناءى وتبعد دانيا من كان منا
فلم تبعث لدعوتنا رسولا كسائر أهل بشة حيث كنا
كأنك لم تجد فينا اكتفاء بدا لك أن تغض الطرف عنا

وينتهز فرصة عيد استقلال تشاد فيرسلها أنشودة وطنية خالصة يتغنى فيها بوطنه تشاد، يفتخر بانتسابه إلى هذا الوطن، مثيراً للهمم على المضي في بناء الوطن والدفاع عنه، يقول:-

بشرى لنا يا شادنا نستقبل أعيادنا
نستقبل اليوم الأغر لنا ببشراه ظهر
عيدا به الشاد انتصر بردا على أكبادنا

وحينما يرى هذا الوطن يرزح تحت ركام الجهل والتخلف، فإنه يتألم ويتحسر على هذه الحالة، ويتمنى أن يجد الشعب التشادي وسيلة تدفع به لإدراك ركب الحضارة واللحاق بالأمم المتقدمة، فيقول:-

أرى الشاد من دون البلاد تخلفا عن السير في ركب الصيام إذا غدا
فأني لأبناء التشاد وسيلة لإدراك ركب بالمسيرة أبعدا
وخلفه بين الورى في تنازع يسير على الآثار في ما تعودا

وإن عم إفطار الشعوب توافقا إذا ما هلال العيد للناس قد بدا

وجند نفسه ناطقاً رسمياً باسم الشعب التشادي في كثير من المناسبات، وخاصة عند استقبال الوفود والشخصيات العظيمة التي تزور القطر التشادي، فلا يأتي رئيس عربي، أو وفد رسمي من دولة عربية إلا ويتلقاه المجبري بقصيدة ترحيبية، يعبر فيها عن مشاعر الشعب التشادي، تجاه هذا الضيف، حيث يقول:

نرجو لكل من يزور شادنا إقامة يرضى بها أمجادنا

ولن يعود بالغا مرادنا إلا إذا بما رأى قد أعجبا

تحية من كل شعب الشاد إلى رفيع المجد والعماد

شعب الكويت صانع الأمجاد ما هب في أرجائها ريح الصبا

أهلاً بأبطال الكويت النجبا شر فتمونا مرحبا يا مرحبا

فهذه بعض أشعاره التي تبرز تلاحمه مع أحداث وطنه التشادي، وحرصه على النهوض به، ودفع عجلة التقدم والتطور فيه إلى الأمام.

شعره عن وطنه الثاني (ليبيا):

لم يكن تلاحم المجبري مع قضايا وطنه الحالي (تشاد) يمنعه من التجاوب مع آمال وطنه الثاني الذي ينتمي إليه آباؤه وأجداده (ليبيا)، فهو لم يكن عن انقطاع عما يجري في الساحة الليبية، كما مر بنا في غير هذا الموضع. ولكن تلاحم المجبري مع القضية الليبية وتفاعله معها، لم يظهر جليا في شعره، إلا بعد قيام ثورة الفاتح من سبتمبر.

ولعل هذا يفسر سر تفاعله مع قيام الثورة، بقيادة العقيد معمـــر القذافي، منذ الوهلة الأولى، فما أن أعلن عن قيام الثورة حتى ســـارع شاعرنا إلى كتابة قصيدة عاجلة يرحب فيها بـــالثورة ويشـــيد بقائـــدها ورجاله الذين فجروا الثورة، فيقول:

تفجـــرت ثورة الأحـــــرار تنحدر بيضاء مشرقة كالصبح تشتهر
في غرة الشهر من سبتمبر انطلقت مفاجئا جاء في تحكيمها القدر
قامـــت تزف طبول النصر معلنة إرادة الشعب تأكيدا لما ضمروا
مقـــرونة تـــزف ببهاء العز مقبلة تجتاز بالفـــوز والتأييد والظفر
لهـــيكل جـــاء في التقدير معجزة من معجزات بني الليبي تعتبر
جـــديرة منه بالتـــقدير بـــارزة في ليـــلة كانت الأحشاء تستعر
يوجـــه الجيـــش فيها من يعز به (معمر) نـــعم ذاك الـــقائد الحذر
سعـــياً إلى قمة العلياء منـــدفعها مـــهما تزايد في أهدـــافه الخطر
حتى تحقق كل ما يرجوه منتصراً بجنـــده ثابـــت الأركـــان يفتخر
وأصبحت دولة الأحرار شاهرة سيفاً على الظلم لا تبقي ولا تذر
فـــيا بنـــي الوطـــن الليبي تهنئة بثورة من صـــميم الشعب تنحدر
جاءت تعيد حقوق الكادحين لها بوافر العطف من أعماقهم شعروا

ثم يأتي أول عيد من أعياد الثورة سنة 1970م، فيكتب قصـــيدة ثانية تسير على نفس نهج القصيدة الأولى، من الابتهاج والفرح، ولكنه يميل فيها أكثر إلى التصريح بمساوي العهد السابق، ويصب عليه جـــام

غضبه، حتى يجعل ذلك متكئا لإبراز الفرحة والسرور بالعهد الجديد، فيقول:

مرحا بسبتمبر المحبوب وافانا في عيد ثورتنا البيضاء هنانا
تفجرت بعد أعوام مجللة بحالك من سواد الليل عشانا
طغت بها حدة المستعمرين على حكم تداول فينا حيث أشقانا
بفاتح منك يا سبتمبر أكتسحت سلاسل الرق زالت عن رعايانا

إلى أن يختمها بهذا البيت الناطق بكل آيات الفرح والاعتزاز، والتفاؤل بالمستقبل:

عزت بلادك يا ليبي واندفعت إلى الأمام، وعين الله ترعانا

كما كتب ثلاث قصائد في فترات مختلفة حول جلاء القوات الأجنبية من الأراضي الليبية، وهي الخطوة التي أصر عليها العقيد معمر القذافي، وأستحق بها الإعجاب من جميع الشعوب العربية والإفريقية التي نظرت إليه زعيماً متحرراً يملك قراره السياسي دون رضوخ للضغوطات الاستعمارية التي يركع لها معظم زعماء العالم الثالث.

ونظراً للروح الثورية المتأججة في وجدان هذا الشاعر، وغضبته العارمة على الاستعمار الغاشم الذي رزحت تحته تشاد وليبيا معاً، فقد كان من الطبيعي أن يستعيد أمجاد رموز المقاومة ضد المستعمر، وخاصة قائد المقاومة الليبية ضد الاستعمار الإيطالي الشهيد عمر المختار، فكتب في رثائه قصيدة طويلة مطلعها:

على صفحة المجد الرفيع تسطر وقائع أمجاد مدى الدهر تذكر

فهذه لمحات سريعة عن شعر الشاعر المجبري، وقصائده التي كتبها عن وطنيه تشاد وليبيا. وشعره في كلا الوطنين يمتاز بالعاطفة القوية والروح الإسلامية، كما تبدو في شعره بعض سمات الشخصية التشادية التي وصفها الدكتور: (حمدنا الله) بأنها لا تتصف بشعار (من صفعك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر) ولكنها تتصف بشعار (من اعتدى عليك فكل له الصاع صاعين)[1].

وإن كنت أفضل أن أصف هذه الشخصية بالتمسك بقوله تعالى: (ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل)[2] .

ولهذا نجد في شعره المجبري التحريض الدائم على مقاومة الاستعمار بكل أنواعه ودعوته الحارة إلى الدفاع عن الأوطان والاستماتة في ذلك، وهو يبدل كل الوسائل من أجل استثارة النخوة والحمية في نفوس أبناء الشعبين الشقيقين اللذين أصبح همزة وصل بينهما.

[1] . من محاضرات الدكتور: عبد الله حمدنا الله: في الأدب التشادي.
[2] . سورة الشورى، الأية 38.

ثالثاً: المجبري ودوره التجديدي في الأدب التشادي:

ينتمي المجبري حسب مراحل تاريخ الأدب التشادي التي وضعها الدكتور: عبد الله حمدنا الله، إلى مرحلة الانتباه – كما سماها – وهي تبدأ فعلياً من فترة الأربعينات إلى السنوات الأولى إلى أعقبت الاستقلال، وهذه هي الفترة التي بدأ فيها نجم شاعرنا يتألق في سماء الشعر التشادي. ويقسم الدكتور هذه المرحلة إلى مرحلتين.

أولهما: تبدأ من الثلاثينيات إلى الخمسينيات، وتتكون بصورة أساسية من الشعراء الذين تلقوا معظم تعليمهم خارج تشاد، حيث ذهب بعضهم إلى السودان، وبعضهم الآخر إلى مصر. ومن بين هؤلاء: الشيخ محمد عليش عووضة، وأحمد طبيق، وأحمد عبد الله، وأحمد البرعي.

الثانية: تأتي بعد الخمسينات، وشعراؤها هم أولئك الذين درسوا في معهد أم سيوقو أو تأثروا به، من أمثال: صالح عامر، ومحمد جرمة، وآدم عبد المجيد[1]، وواضح أن الشاعر المجبري يقع تاريخياً ضمن شعراء الفترة الأولى، وشعره يتميز بخصائص فنية عديدة تجعله رائداً من رواد التجديد في الأدب التشادي. ولهذا فقد أشرت في صفحات سابقة إلى أن دوره في الأدب التشادي شبيه بدور خليل مطران الذي وصفه النقاد بأنه (لم يلجأ إلى المعارضة والاحتداء التام على قصائد العباسيين في الوزن والروي، بل كان يكتفي باللفظ الفصيح والمفردات

[1] .الشاعر إبراهيم أبو الدهب – حياته وشعره، حامد هارون محمد، بحث مقدم لنيل دبلوم الدراسات المعمقة في اللغة العربية، بجامعة الملك فيصل، ص10،11.

السليمة من كل شائق في العربية ورائق. هو يأخذ منهم المادة، ولكنه يدخلها إلى مخليته ليحملها أفكاره ومعاينه. ومن ثم لا يبدو التقليد واضحاً عنده،..... ومع ذلك تقرأ فيه شعوراً واضحاً بأن صورة الشعر العربي لم تتغير، لأنه يحتفظ بالأصول المسبقة مع التحرر منها، فهو يتابع في الظاهر والخارج، أما في الباطن والداخل فإنه يجدد ويخالف، ويعبر عما في نفسه تعبيراً كاملاً يصور فيه معانيه العقلية والنفسية)[1].

هكذا كان مطران، وهكذا كان المجبري، مع مراعاتنا لبعض الجوانب التي يقصر فيها المجبري عن إدراك شأن مطران، من حيث اطلاع الأخير على الآداب الأجنبية، واستقراره في بيئة علمية وأدبية أرقى، تضم فحول الشعراء من أمثال أحمد شوقي وحافظ إبراهيم وعباس محمود العقاد ونحوهم، ممن يعتبرون خير دعامة لخليل مطران يقومون عوده، ويصححون أخطاءه، ويصوبون مسيرته بالنقد والتجريح والمتابعة الدائمة. وذلك كله لا يتوفر في البيئة التي عاش فيها المجبري، فكان من الطبيعي أن يقع في بعض الأخطاء النحوية أو العروضية التي تبدو في شعره من حين لآخر وهي بالطبع لا تقلل من شأن رسالته التجديدية، إذا راعينا فيها ظروف الزمان والمكان.

[1]. شوقي ضيف، مرجع سابق، ص123.

وبهذه التوطئة يمكننا الآن أن نتناول أهم الجوانب التجديدية في شعر عبد الله يونس المجبري، التي أضافها إلى الأدب التشادي لأول مرة، وإن كانت معروفة في الأدب العربي في بقية الأقطار العربية.

التجديد في المضمون:

كان الشعر التشادي قبل المجبري يدور حول محور ثابت لا يتعداه، وهو الشعر الديني، الذي يندرج فيه شعر التصوف بمعناه التقليدي، والحكم والمواعظ والأدعية، ونحو ذلك. باستثناء بعض المقطوعات الوجدانية التي نجدها في مطالع قصائد عبد الحق السنوسي، فلا نكاد نجد شاعراً يتحدث عن المجتمع وقضاياه السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فالشاعر السنوسي تناول بعض القضايا السياسية، على سبيل التلميح وليس التصريح[1]، ومع ذلك فقد انطفأ هذا الشعاع بمقتله سنة 1917م على يد المستعمرين الفرنسيين، ولم يعد هناك صوت شعري إلا في هذه الفترة التي سميت مرحلة الانتباه، ولكنها أيضاً كانت تنحصر في نطاق محدود من الموضوعات والأغراض.

من هنا تأتي أهمية التجديد الجوهري الذي بثه الشاعر المجبري في مضمون الشعر التشادي بتناوله العديد من الموضوعات السياسية والاجتماعية والعلمية والحضارية، وإدخالها في نطاق تجربته الشعرية.

[1] . الاتجاهات الشعرية في شعر أحمد عبد الرحمن إسماعيل، حسب الله مهدي فضله، مرجع سابق، ص14 وما بعدها.

ومن أبرز هذه الموضوعات الجديدة التي تناولها المجبري ما يلي:

1. موضوع الكفاح ضد الاستعمار:

جعل المجبري من قضية مكافحة الاستعمار الأوروبي بشقيه الفرنسي والإيطالي، قضية جوهرية، فهو لا يجد مناسبة ذات مضمون وطني أو قومي إلا وأشار فيها إلى المستعمرين ومكائدهم، ودعا إلى التحرر من قبضتهم، فهو حين يقف بمعهد أم سيوقو العلمي وينشد فيه قصيدته إلى سبقت الإشارة إليها، يجدها فرصة مناسبة للتذكير بالجريمة البشعة التي ارتكبها المستعمرون بحق هذا الوطن، وحين قضوا بإبعاد الشيخ عليش ونفيه عن البلاد، فيقول:

لما صفا الدهر والأيام جاهدة ... تسعى إلى صفوها فيما يكدره

جاءت أوامر نقل الشيخ طارئة ... تقضي بإبعاده والله قدره

مكيدة حاكها المستعمرون له ... هل كان مرتكباً ذنبا ليهجره

وقد مرت بنا قصائده الوطنية التي يعلن فيها فرحته بالاستقلال عن الاستعمار، ويدعو فيها إلى الاستعداد لمجابهته وصده عن معاودة الاحتلال لهذا الوطن.

2. قضية فلسطين:

هي في الحقيقة امتداد لموضوع الكفاح ضد الاستعمار، ولكنها تكتسب أهمية خاصة، نظراً للظروف الدولية والمؤامرات الخارجية والداخلية التي حيكت حولها. وقد كانت الشغل الشاغل لكل الشعوب

الإسلامية في الفترة التي عاش فيها المجبري، قبل أن يتم تقليصها إلى دائرة عربية، ثم فلسطينية ثم فتحية[1] ولذلك فمن الطبيعي أن يتفاعل معها الشاعر، ويدلي بدلوه في مضمار الكلمة الجهادية، وتخليد شرف الذين شاركوا في الدفاع عن هذه القضية، فقد كتب قصيدة بعنوان (نداء فلسطين إلى أبنائها المشردين سنة 1967م)، يقول فيها:

تدعو بني الوطن الكرام نداءها ... شوقا يهز حنينها أرجاءها
كحنين ثاكلة الجنين مريعة ... تبكي الربوع لفقدها أبناءها
ذرفت فلسطين الدموع غزيرة ... تصف الوجود لهول ما قد ساءها
كنا نحاذر أن تظل صريعة ... والقدس نادية يهيج رثاؤها
فإذا بنو العرب الكرام مجيبة ... لبيك فينا لا يخيب رجاؤها

3. الشعر الوطني والسياسي:

هذا الجانب أيضاً يرتبط بموضوع مكافحة الاستعمار ، ولكنه تميز عنه بتناول جوانب وطنية عديدة، لم تكن معهودة من قبل. فمن المعروف أن القطر التشادي لم يأخذ هذا الاسم وهذه الحدود السياسية المعروفة إلا في العهد الاستعماري، أما قبل ذلك فقد كانت الممالك القائمة هي التي تمثل الكيانات السياسية التي ينتمي إليها السكان، دون تعصب أو تمييز تجاه الأفراد.

فليس من المتوقع أن نجد شعرا وطنيا بالمعنى المعهود الآن في عصر لم تكن فيه الدعوات الوطنية والقومية والإقليمية معروفة في

[1] . أي قضية خاصة بمنظمة فتح دون غيرها من الفصائل الفلسطينية.

التلاميذ ويقدمونها عند الحاجة. فمن أناشيده الحماسية والوطنية نشيده الذي سبقت الإشارة إليه، والذي أعده بمناسبة عيد الاستقلال، وهو من مجزوء الكامل:

بشرى لنا يا شادنا نستقبل أعيادنا
نستقبل اليوم الأغر لنا ببشراه ظهر
عيدا به الشاد انتصر بردا على أكبادنا
يحيا الشباب للوطن فداءه من المحن
ذخرا على مر الزمن مهما جنى حسادنا
على النفوس نعتمد فيما يهم شادنا

ومن أناشيده الترحيبية ذلك النشيد الذي سبقت الإشارة إليه أيضاً، والذي أعده لاستقبال الوفد الكويتي الزائر:

أهلا بأبطال الكويت النجبا شرفتمونا يا مرحبا يا مرحبا
يا عمدة الأحرار أمجاد العرب فكم لكم قد أفرجت من الكرب
فما لكم غير المعالي من طلب فإنها الغالية من عهد الصبا
أهلا بأبطال الكويت النجبا شرفتمونا يا مرحبا يا مرحبا

التجديد في الأسلوب:

من الإضافات التجديدية الرائدة لشاعرنا، إدخاله الأسلوب القصصي الدرامي في أشعاره. وهذه أيضاً من أوجه الشبه إلى تجمع بينه وبين مطران. ونجد الأسلوب القصصي في قصيدته عن عمر

المختار، إذ يصور فيها نضال هذا المجاهد منذ ان وقع في الأسر، ثم يصور محاكمته، ويبدع في إبراز المراوغة والمساومة التي كان يقوم بها القائد الإيطالي (غرسياني) لإقناع عمر المختار بإعلان رفض الثورة والاستسلام لإرادة المستعمرين، فيصور الشاعر كل هذه المشاهد قائلاً:

فحاكت به الأعداء شر مكيدة بشرذمة للخائنين تدبر
فوقع معلول اليدين مكبلاً بقبضة أشرار الأنام وأمكر
يسومونه سوء العذاب وإنه بذلك لا يزداد إلا تكبر
على الرغم مما نال منه فلم يزل مصراً على ما كان في القلب يضمر

إلى أن يقول:

وقيل له ما الاسم إذ رد قائلاً أنا عمر المختار من كان يذكر

فيسأله المحقق:

وما كنت تبغي من بقائك ثائرا ضد الحكومة صامداً يتجبر؟

فيجيب قائلا:

إني لظلمكم الرهيب مقاوم ما كنت أنظر نحوه متصور

ويكشف عن المساومة:

ووقعت في شرك العدالة عندنا ما شئت منا في الأمور تخير
هي ظلمة القبر الرهيب وعكسها فينا على قيد الحياة ميسر
لتعيش في تلك القيادة حاكما فيها على أبناء جنسك آمر

مطران الذي وصفه النقاد – رغم نفثاته الوجدانية الذاتية في قصيدتيه (المساء) و (الأسد الباكي) بأنه (يسير في نفس الاتجاه الغيري الذي عم عند شعراء النهضة ويقتحم فيه بابا جديداً، ومن غير شك أحسن اقتحامه)[1] وهذا الوصف ينطبق على شاعرنا المجبري من خلال أشعاره التي بحوزتنا.

والله ولي التوفيق

[1] . الأدب العربي المعاصر في مصر، شوقي ضيف، ص51.